

# الدلالة المعنوية

## في اللغة العربية

### بين الأصالة والمعاصرة

بقلم الأستاذ: أحمد عبد الرحيم الساع

اللغة نشاط بارز من النشاطات الانسانية. وهي لشدة قربها منا غالبا لا نراها الرؤية الصحيحة الموضوعية.. فتحن نحدث الناس ونصغي اليهم. وهم يحدثننا دون أن يعبر الكيفية التي يتم بها المتحدث أي اهتمام أو تفكير..

ويديهي أن نقول: إن المرء يحرك عضلات النطق المعروفة. فيصدر أصواتا معينة. يسمعها الشخص المخاطب. فيفهمها. وبناء على فهمه. يقوم برد الفعل المناسب..

فكيف يستطيع الانسان أن يترجم تلك الرموز نصوتية. إلى معان يدركها. وينبثق معانيها؟..

تشير الدراسات التي قام بها علماء اللغة والنطق. الى وجود قدرة كامنة. في دماغ الانسان. تمكنه من التمييز بين ما يسمعه من الكلام..

ولقد ظل علماء اللغة والنطق. مدة طويلة. يحاولون التوصل الى نظرية محددة تشرح كيفية ادراكنا لرموز اللغة ومعانيها..

ويطلق على هذه النظرية اصطلاحاً اسم «نظرية المعنى»<sup>(١)</sup>.

وفلاسفة اليونان وحكماؤها دعوا إلى الأخذ بأساليب معينة وطرق خاصة، للهبسة على التفكير الانساني، والسيطرة على ما يدور في الأذهان.. وقد جعلوا تلك الأساليب والضيق في صور بدييات لا تقبل النقاش، ولا يصح أن تكون موضع جدل.. ثم اتخذوا من تلك البدييات مقدمات لقضايا عقلية، ينتهون منها إلى حكم خاص لا يتردد العقل في قبوله..

وكان من نتيجة هذا النهج العقلي في الأحكام أن ابتدعوا لنا علما سموه «المنطق» بينا حدوده، ونموا موضوعاته. حتى أصبح على يد أرسطو<sup>(٢)</sup> علما واضح المعالم، يتداركه الناس..

وم يتخذ «أرسطو» ومن نحوه من المناطق لهذا العلم رموزاً كالرموز الرياضية والهندسية. ولكنهم صاغوا قضايا ومسائل على نهج لغوي شبيه بكلام الناس، اعتقاداً منهم: أن أساليب اللغة ليست إلا وسيلة للتعبير عما يدور في الأذهان..

ومثل الفكر الانساني قبل التقى بمضمونه مثل الصورة الشمسية قبل تخميشها. فإذا عولجت بقدر خاص من الأحماض، انضجت معانها، وتكشفت خطوطها، وملاحمها. وهكذا شأن التعابير اللفظية مع العمليات الذهنية لا يكاد يعدو مهمة التوضيح، وإبراز المعاني والملاحم للأذن الانسانية. ولقد كان طبعياً أن نرى أولئك المفكرين القدماء أصحاب العقول الكبيرة، يحصرون أنفسهم في محيط معين لا يتعدونه في تفكيرهم، ولا يخرجونه عنه..

ولما انتهى أرسطو من تأسيس منطقته، وتحدد معالمه، رغب في حمل الناس على اتباع هذا المسلك في التفكير، والتزام تلك الحدود، بعد أن صب تعاليمه في قوالب لغوية، وصاغها في صورة ألفاظ وأصوات بألفها الناس في أحاديثهم..

وهنا بدأت الصلة بين اللغة والمنطق. وظل المفكرون بعد أرسطو قروناً

طويلة، يربطون بين اللغة والمنطق، ويحاولون صب اللغات في تلك القوالب المنطقية التي ابتدعها أرسطو. طورا يؤثفون الصلة، فينكرون من كلام الناس مالا يتفق وحدود المنطق. وأخرى يقتصلون في هذا. فترى منهم من يجعل للمنطق حدوده ولغة حدودها. ولكن الحدود متشابكة متداخلة، فهناك ناحية من المنطق تنطبق تمام الانطباق على ناحية اللغة. كما أن هناك من المنطق مالا يمت للغة في صورتها المألوفة الشائعة على الألسنة بصلة مالا<sup>(٣)</sup>..

وليث المنطق يغزو يبحوثة بعض مناطق اللغات. كما ظل اللغوي يقتحم يبحوثة بعض نواحي المنطق.. ولو أن أرسطو قد اتخذ لعلمه رموزا أخرى، لاشأن لها بما يدور على الألسنة من ألفاظ وعبارات ما احتاج المنطقي الى البحث في اللغة، ولا احتاج اللغوي الى النظر في المنطق.. وقد استطاع أرسطو أن يقرب بين منطقته واللغة اليونانية، ان لم يكن قد جعلهما منطبقتين تمام الانطباق..

وأعجب المفكرون في الأمم الأخرى بمنطق أرسطو، وحاولوا صب لغاتهم في تلك القوالب، موفقين في هذا تارة، وبعيدين تارة أخرى. لذلك لا تعجب حين ترى اللغويين القدماء من العرب. قد سلكوا هذا المسلك من الربط بين اللغة العربية والمنطق.. وكثيرا ما نشهد في البحوث اللغوية من الأقيسة والاستباطات، مالا يمت لروح العربية بصلة مالا<sup>(٤)</sup>..

ولقد كشف الدكتور ابراهيم مذكور عن تأثير النحاة العرب. بمنطق أرسطو وذلك في بحث له بعنوان «منطق أرسطو والنحو العربي» ألقاه بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة ١٣٤٨هـ. جاء فيه: «ولاشك في أن المنطق الأرسطي قد صادف في القرون الوسطى المسيحية والإسلامية، نجاحا لم يصادفه أي جزء آخر من فلسفة المعلم الأول. فعرف أرسطو المنطقي قبل أن يعرف أرسطو الميتافيزيقي. وترجم «الأرجانون» قبل أن يترجم كتاب الطبيعة أو كتاب الحيوان. وللأرجانون في العالم العربي منزلة خاصة، فكانت أجزاؤه أول ماترجم من الكتب الفلسفية الى اللغة العربية».. ثم يقول الدكتور مذكور في نفس البحث: «ولم يقف الأمر فيما نعتقد عند الكلام والفلسفة بل امتد الى دراسات أخرى من بينها النحو. وقد أثر فيه المنطق الأرسطي من

جانين: أحدهما: موضوعي.. والآخر: منهجي. فتأثر النحو العربي عن قرب أو عن بعد بما ورد على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية، وأريد بالقياس النحو أن يحدد على نحو ما حدد القياس المنطقي» (٢٥) ..

وهكذا يرى صاحب البحث أن نخاة العرب قد تأثروا بالمنطق الأرسطي وأعجبوا به.. ولكن احقاقا للحق وإضافة للغة العربية. نرى من الضروري أن نشير الى موقف بعض نخاة العرب من المنطق، ونفويهم من مسايرة المناطقة في بحوثهم. يشهد لذلك ما كان من مساجلات بين أهل المنطق وبعض النخاة، في حضرة الخلفاء، والوزراء، والأمراء.. فقد عقد أبو حيان التوحيدي في رسائله التي سماها «المقايسات» فصلين. جعل الأول منهما على صورة حوار بين أستاذه أبي سعيد السيرافي، أحد النخاة المشهورين. وبين مثنى بن يونس المنطقي، في حضرة الوزير بن الفرات.. ظهر منها ميل أبي حيان لمسلكت النخاة، وقد اتخذ أبو حيان هذه المناظرة عنوان «المنطق اليوناني والنحو العربي» أما الفصل الثاني فقد اشتمل على رسائل جاءت في المقايسات، عنوانها: «ما بين المنطق والنحو من المناسبة». رواها أبو حيان على صورة حديث بينه وبين أستاذه سليمان المنطقي. وقد سجل ذلك في الليلة الثامنة من كتابه «الامتاع والمؤانسة» (٢٦) ..

ويظهر من كل هذا أن القرن الرابع الهجري، قد شهد صراعا بين طائفتين من علماء العربية..

أولئك الذين أعجبوا بعنوم اليونان وثقافتهم اعجابا بلغ بهم أن كانوا لا يابون بغيرها، ولا يرون فضلا الاها..

وآخرون يرون الاقتصاد والاعتداد، ولا يتكبرون فضل اليونان، ولكنهم لا يرون كل الفضل.. فتأربت بينهم لذلك المناظرات والمساجلات التي انتصر فيها أصحاب الاعتدال في غالب الأحيان..

وقد امتد ذلك الصراع الى محيط المنطق واللغة. أو بعبارة أدق الى قوم أرادوا الناس في عصرهم على صب أساليب اللغة العربية، في قوالب المنطق اليوناني.. وآخرون استمدوا في بحوث العربية بعضا مما ذكره أرسطو من مبادئ لغوية..

ولكنهم استمسكوا بخصائص لغة العرب، وأخضعوا ما اقتبسوه من روح اللغة العربية، مدركين أن لكل لغة خصائصها، ولا يصح أن تفيد العربية بقيد اليونانية (١٧) ..

ونلاحظ من المناظرة التي كانت في حضرة الوزير ابن الفرات المتوفي في العشرينات من القرن الرابع الهجري، أن متى بن يونس كان يمثل الفريق المعالي في الاعتزاز بثقافة اليونان. وأن أبا سعيد السيرافي كان يمثل الفريق الآخر الذي لا ينكر فضل اليونان. ولكنه يرى تشكيله وتكييفه حسب طبيعة اللغة العربية مع الاعتزاز بتلك الخصائص النوعية التي لا تمت لمنطق اليونان بصفة.

يقول السيرافي: «والنحو منطق ولكنه مسلوخ عن العربية. والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللغة.. وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى. أن اللفظ طبعي والمعنى عقلي»

فالسيرافي إذن لا يتنكر للمنطق في البحث اللغوي. وقد سلك هذا المسلك فعلا في شرحه لكتاب سيبويه، حين اتخذ بعض المعاني العقلية أسما بنى عليها بعض قواعد اللغة. ومع هذا، أو رغم هذا كان السيرافي يرى أن لكل لغة خصائصها التي لا يمكن أن تخضع منطق اليونان إلا مع التكلف والتعسف.. ويقول في ذلك: «أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها، وأفعالها، وصورها، وتأليفها، وتقديمها، وتأخيرها، واستعاراتها، وتحقيقها...» أما رسالة أبي حيان الثانية تلك التي جعل عنوانها: «ما بين المنطق والنحو من المناسبة». فيبدو أن أبا حيان قد كتبها فيما بعد. لأنها توحى بمصالحة بين المناطقة والنحاة. اذ يقول: «النحو منطق عربي. والمنطق نحو عقلي. وجل نظر المنطقي في المعاني. وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي لها كاخلل والمعارض. وجل نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعاني التي هي كالحقائق. والجواهر (١٨)» ..

والباحث في أمهات كتب اللغة العربية. يجد للعربية خصائص ومميزات برزت بها غيرها، لا تدانيها فيها لغة من اللغات. فأنت تستطيع أن تؤلف من مفرداتها قطعاً تأخذ بالعقول في عالم الابداع. وبهذا تصل إلى المعنى في أبهى صورة، وأجمل أسلوب من التناسق والجمال..

واللغة العربية بهم بالمعنى منذ خلقها الله، وقبل أن يترجم اليها فكر الاغريق ومنطق اليونان.. وقد ترجم لها ما ترجم فوسعته..

حقيقة أن اللغة العربية عنيت بجمال الألفاظ. وذلك لا لذات الألفاظ وإنما اهتماما من اللغة بما وراء الألفاظ من معاني. وذلك حتى يقع القول من نفس السامع، وقعا يبيء له الحالة النفسية، والذهنية، التي تحفز الى الحركة والعمل، وتبعث بالسامع الى المقصود في ثوب مغوف، ووسام لامع..

واننا نجد أن صاحب كتاب «تحرير التحبير» ابن أبي الأصبغ المصري، يذكر في كتابه فصولا موسعة، عن ائتلاف اللفظ في اللغة العربية مع المعنى، ليبرهن على أصالة العربية وقوة عطائها. فيقول: «باب ائتلاف اللفظ مع المعنى» وتلخيص معنى هذه التسمية: أن تكون ألفاظ المعنى المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى<sup>(٩)</sup>..

ومثال ذلك في قوله تعالى «ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب»<sup>(١٠)</sup>، فعدل سبحانه عن الطين الذي أخبر في كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه.. منها قوله تعالى: «إني خالق بشر من طين»<sup>(١١)</sup>.. وقوله سبحانه حكاية عن إبليس: «خلقتني من نار وخلقته من طين»<sup>(١٢)</sup>.. فعدل عز وجل - وهو أعلم - عن ذكر الطين هو مجموع التراب والماء. الى ذكر مجرد التراب. لأنه أدق العنصرين وأكثرهما. لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الألوهية بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك. فلهذا كان الاتيان بلفظة التراب أمتن من غيرها من العناصر. ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤلف بالمعنى المقصود<sup>(١٣)</sup>..

ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلا اذا كان المعنى فخما، ووريقا اذا كان المعنى رشيقا، وغريبا اذا كان المعنى غريبا بختا، ومستعملا اذا كان المعنى مولدا محدثا. يقول زهير:

أثافي سفعا في معرس مرجل      ونؤيا كجذم الخوض لم يتلم  
فلما عرفت الدار قلت لربعها      الأأنعم صباحا أيها الربع واسلم<sup>(١٤)</sup>

فإن زهير لما قصد إلى تركيب البيت الأول من ألفاظ تدل على معنى عربي، لكن المعنى غير غريب، ركه من ألفاظ متوسطة بين الغرابة والاستعمال. ولما قصد في البيت الثاني إلى معنى أبيض من الأول وأعرف وإن كان عربيًا. ركه من ألفاظ مستعملة معروفة (١٥) ..

ومن اختلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ مساويًا للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه. وهذا من البلاغة التي وصف بها بعض الوصاف بعض البلاغاء. فقال: «كانت ألفاظه قوالب لمعانيه». قال تعالى: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون» (١٦) ..

فإن قيل: معظم هذه الآية من باب الإشارة، لأن العدل والإحسان والفحشاء والمنكر. على قلة هذه الألفاظ، تدل على معاني من أفعال البر وضدها لا تنحصر، ولا معنى للإشارة إلا دلالة اللفظ الغنيل على المعاني الكثيرة. فكيف تجتمع المساواة والإشارة؟ ..

يقال إن المساواة تطلق ويراد بها معنيان: أحدهما: أن تكون ألفاظها ألفاظ المعنى الموضوعة له، فتلك هي التي لا تزيد على المعنى، ولا تقتصر عنه، وهي التي لا تجتمع مع الإشارة، ولا الإرداف (١٧)، ولا غيرها من الكلام الذي لفظه أقل من معناه. والثاني: أن يكون الكلام غير لفظ معناه موضوع له، كالإشارة والإرداف، وما جرى هذا مجرى. فإن كانت كذلك ولم يأت المتكلم في أثناء الكلام وخلالها بلفظة زائدة على لفظ المقصد الذي قصده لإقامة وزن، أو لاستدعاء قافية، أو تنعيم معنى، أو لإيقاظ أو سحجة. فتلك أيضًا مساواة، لأن لكل باب لفظًا يخصه، فمتى زاد على ذلك اللفظ الدال على ذلك المعنى المقصود كان الكلام غير موصوف بالمساواة. والباحث يعرف أن البلاغة قسمان: إيجاز، وأطناب، والمساواة معنية في القسمين معًا. فأما الإيجاز فكقوله تعالى: «ولكم في القصص حياة» (١٨) .. والأطناب في هذا المعنى كقوله: «ومن قتل مظلومًا جعلنا لوليه سلطانًا فلا يسرف في القتل» (١٩). وكقوله سبحانه في قسم الإيجاز من غير هذا المعنى: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» (٢٠) .. وكقوله تعالى في الأطناب: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» (٢١) .. ومن شواهد المساواة قول امرئ القيس:

فان تكتنموا الداء لا تخفه وان تبعنوا الحرب لا تفعد  
وان تقتلوننا نقتلكم وان تفسدوا لدم تفقدوا<sup>(٢٢)</sup>

ومن باب التلaff اللفظ مع المعنى: ملأمة الألفاظ في نظم الكلام على مقتضى المعنى لا من مجرد حملة اللفظ. مثل قوله تعالى: «ولا تركبوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار»<sup>(٢٣)</sup>.. وينفرع أيضا من باب التلaff اللفظ مع المعنى باب الإشارة وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على المعنى الكثير بإمالة أو غنة، ندل عليه.. كما قال بعضهم في صفة البلاغة: هي غنة دالة<sup>(٢٤)</sup>..

ولقد ثبت لدى علماء مقارنة اللغات أن اللغة العربية بفقائها، ونحوها، وبلاغتها، من أكثر اللغات دلالة معنوية. فالفعل قضى معناه حكم. والأصل فيه القطع الخسي. والفعل عقل معناه فهم، وهو مأخوذ من عقل الناقة أي ربطها. والفعل أدرك. الأصل فيه البلوغ الخسي. يقال: فلان أدرك القطار أي لحقه. والفعل بلغ، وضع أصلا للدلالة على الوصول الخسي في المكان والزمان. بل إن الأصل في معنى الفصاحة قوهم: فصيح اللين إذا ذهبت رغوته. ثم قيل فصيح بمعنى وضح. والرأي أصله من رأى أي شهد بعينه<sup>(٢٥)</sup>.. وفي اللغة العربية أبنية، وصيغ، وقوالب، دالة على معان وصفات، وأحوال. فما كان على (فعلان) بفتح الفاء والعين - دل على الحركة والاضطراب. كالنزون، والغليان، واضحيان.. وما كان على (فعلان) بفتح الفاء وسكون العين - دل على صفات تقع من أحوال كالعطشان، والعريان، والرهبان، والغضبان.. وما كان على (أفعل) دل على صفات بالألوان، نحو أبيض، وأحمر، وأسود، وأخضر.. وكذلك العيوب تكون على (أفعل) نحو أزرق، وأعور، وأقطع، وأعرج.. وتكون الأدواء على (فعل) - بضم الفاء وفتح العين - كالصداع، والزكام، واختاق..

والأصوات أكثرها على هذا كالصرح، والنباح، والحوار. وفصل آخر منها على (فعل) كالضجيج، والغمر، والهدير، والصهيل، والبهق..

وحكاية الأصوات على (فعلنة) كالصرصة، والفرقة، والخشخشة.. وأصنعة العرب على (فعلنة) كالسحينة، والعصيدة، والنقبة. وأكثر الأدوية على (فعلول) كاللعوق، والسعوط.. وأكثر العادات على (مفعال) نحو مضعان، ومطعم، ومضياف، ومهذار<sup>(٢٦)</sup>..



وصيغ الأفعال وأوزانها في اللغة العربية، عامل من عوامل ثروة اللغة، وقدرتها على الدلالة على فروق وظلال. تنضاف إلى المعنى الأصلي دون زيادة في اللفظ. ومع الاحتفاظ بطابع التركيز، والدقة، والعمق، والأصالة (٢٧) ..

قال تعالى: في الأكثر الأغلب (فعل) بفتح الفاء وتشديد العين مع فتحها - يكون بمعنى (أفعل) نحو: كرم وأكرم، ونزل وأنزل. ويكون مضافاً له نحو: أفرط إذا جاوز الحد، وفرط إذا قصر.  
قال الشاعر :

لا خير في الإفراط والتفريط      كلاهما عندي من التخلیط

و«أفعل» يكون بمعنى «فعل» نحو أسقى، وسقى، وأحضره، وحضره. وقد يتضادان نحو: نشط العقدة إذا شدها، وأنشطها إذا حلها.. وتفاعل يكون بمعنى «فعل» نحو تخلصه إذا خلصه..  
قال الشاعر :

تخلصني من غفلة الغي منعا      وكنت زمانا في ضمان اساره  
وكما قال عمرو بن كلثوم :

تهددنا وتوعدنا رويدا      متى كنا لأهلك مقتونيا

ويكون «تفعل» بمعنى «أفعل» نحو: نعيم بمعنى أعلم. كما قال النظمي:

تعلم ان بعض الشر خير      وان لهذه الغم انقشاعا

وتعلم أي أعلم (٢٨) ..

فلذلك الصيغ والأوزان وغيرها تعطي للمعنى في اللغة العربية تقديرا خاصا، وعناية ملموسة. حتى أن البلاغة في العربية تهدف في أغراضها إلى إبراز

المعنى.. والبلاغة في اصطلاح النظار من علماء البيان العربي عبارة عن: «الوصول الى المعاني البديعة بالألفاظ الحسنة.. وان شئت قلت هي عبارة عن حسن السبك، مع جودة المعاني» (٢٩)..

ويقول السكاكي في اختيار «اسم المعاني»: «قيل في سبب اختيار هذا الاسم أنه يبحث فيه عن الكيفيات والخصوصيات التي تعتبر في المعاني أولا وبالذات. وفي الألفاظ ثانيا وبالعرض. فنبهوا على أن هذا العلم يتعلق بالمعاني وكيفياتها، لا بالألفاظ نفسها» (٣٠)..

ويقول عبد القادر الجرجاني في مزية المعاني في الكلام العربي: «وأنها ليست لك من حيث تسمع بأذنك. بل من حيث تنظر بقلبك. وتستعين بفكرك، وتعمل برؤيتك، وتراجع عقلك، وتستجد في الجملة فهمك» (٣١)..

يقول ابن جني: فاذا رأيت العرب أصلحوا ألفاظها - أي اللغة العربية - وحسنوها، وحمو حواشيها، وهذبوها، وصقلوها غروبها، وأرهفوها، فلا ترين أن العناية اذ ذاك إنما هي بالألفاظ. بل هي عندنا خدمة للمعاني، وتنويه وتشريف. ونظير ذلك اصلاح الوعاء، وتخصيصه، وتركيبه، وتقديره.. وإنما المبنى من ذلك منه الاحتياط للموعى عليه وجواره بما يعطر نشره، ولا يمر جوهره. كما قد نجد من المعاني السامية ما يهجنه، وبعض منه كدرة لفظه، وسوء العبارة عنه (٣٢)..

وفي موضع آخر من كتاب «اخصائص» يذكر ابن جني: أنه لما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقا الى اظهار أغراضها ومراميتها. أصلحوها، ورتبها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على المقصد (٣٣)..

وشيء آخر يجعل اللغة العربية أكثر مرونة. وهو أنها أكثر اللغات قبولاً للاشتقاق.

والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة أن تؤدي معاني العلم والحضارة. وهو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى، ومادة، وهبة تركيب، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفا وهبة (٣٤)..

والاشتقاق في اللغة العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الأصلي، وتلوينه. إذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع، وتطبع، ومبالغة، وتعدية، ومضادعة، ومشاركة، ومبادلة.. مما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الأخرى إلا بالفاظ خاصة ذات معانٍ مستقلة..

وصيغ اللغة العربية تفرق تفرقة واضحة، بين ما هو حركة في النفس، وما هو حركة في الجوارح.. العربية تفرق مثلا بين الكبر والتكبر، والتعلم، والتفقه، والتنفقه..

وقد التفت المستشرق الفرنسي «كارادوفو» الى هذه الظاهرة، فله سمعه الآن ينوه بها في كتابه عن العراقي. فقال: «لقد ميز العراقي بين الكبر الداخلي، والكبر الخارجي. فالداخلي هو استعداد في النفس، والخارجي ناتج من أفعال الجوارح».. ولأحظ كارادوفو أيضا: أن هذه الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها ألفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها في لفظ واحد من اللغات الأخرى.. وخلص المستشرق الفرنسي من هذه الملاحظة الى التنويه بما تنطوي عليه اللغة العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق..

وقال كارادوفو: ان احداث أي تعبير طفيف في بنية اللفظ العربي، يسمح لثلث اللغة بأن تميز بين احوالة النفس، وبين العادة البدنية التي تضابقتها<sup>(٣٥)</sup>..

ولا نزاع في أن منهج اللغة العربية الفريد في الاشتقاق، قد زودها بذهنية المعاني.. وهذه الطريقة في توليد الألفاظ، بعضها من بعض، جعلت من اللغة جسما حيا، تتوالد أجزاؤه ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المتككة المعزلة التي كان لابد منها لو عدم الاشتقاق..

وهذا الارتباط بين ألفاظ العربية - الذي يقوم على ثبات عناصر مادية، وهي الحروف أو الأصوات، وثبات قدر من المعنى. سواء كان ماديا أو ظاهرا أو مختفيا مستترا - خصيصة عظيمة، من خصائص هذه اللغة. تشعر الناطق بها، بما بين ألفاظها من صلوات، تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها مدهش، وان طريقتها توليدية، وليست آلية جامدة<sup>(٣٦)</sup>..

يقول الدكتور عثمان أمين: «وإذا أردنا مثلاً على ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتقاق والتصريف. فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية». فهو يرى في كلمة «صهر» أي أذاب الجسم بالنار. انه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات كثيرة، تجري على صيغ متنوعة، ولكل صيغة منها معنى يدل على حالة دقيقة من حالات الجسم تخالف غيرها من الحالات، فنقول: انصهر، واستصهر، وتضاهر، ومنصهر، ومصهور (٣٧)».

ومما يؤكد لدى الباحثين أن اللغة ضرورة اجتماعية، وأنها وجدت للوفاء بحاجة الانسان في شتى المجتمعات.. وهذا يوضح لنا أن جميع المشتقات لم توجد في عصر واحد. لأن التطورات في الحياة، قد تعاقبت في أزمنة متفاوتة، وأجيال متعاقبة. وليس من اليسر أن تدرك أسبقها في الوجود، ولا أن تعين الوقت الذي استعملت فيه مادتها الأصلية. والوقت الذي أريد فيه منها معناها الخاص..

الا أن الواقع يرشدنا الى أن المحسوسات أسبق من المعنويات لأنها أول مايقع عليه حس الانسان في حياته..

وهذا يجعل الباحث في اللغة يرجح أن المشتقات وان تفاوتت في الأزمنة وجوداً الا أنه لا مناص من الاعتراف بسبق الأمور الحسية على الأمور المعنوية (٣٨)».

وتدل الحركات في اللغة العربية على المعاني المختلفة من غير أن تكون تلك الحركات أثراً لمقطع، أو بقية من أداة. فيكون ذلك في وسط الكلمة وأوها وآخرها. فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل، واسم المفعول، في مثل مكروم - بكسر الزاء = ومكروم - بفتح الزاء.. وبين فعل المعلوم وفعل المجهول. نحو: كتب بفتح الكاف، وكتب - بضم الكاف - وبين الفعل والمنصهر في مثل: غلب، وعلم، وبين الوصف والمنصهر في مثل فرح وفرح، وبين المفرد والجمع في مثل أسند، وأسند - بضم الضمة والسين. وبين الفعل والفعل في مثل قدم - بكسر الدال، وقدم - بضم الدال.. وبين الاسم والاسم في مثل: سحور بضم سين، وسحور بفتح السين (٣٩)».

يقول (اغناطيوس كراتشكوفسكي): أول ما نلاحظه من أول نظرة نلقها على هذه اللغة - العربية - هي العظم في الكلمات والانتقال في الشكل واللبونة في التركيب، وكل هذا يدل بوضوح على تاريخ طويل سابق (١٢٠) .. كما أن انتقال العروض يثير دهشة لا تقل عن تلك التي يثيرها انتقال اللغة .. فاللغة العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي أُجبت عروضاً مستقلاً ..

هذا العروض قرر التحليل العلمي الأوروبي صاحبه الكمي امبي على تعاقب المقاطع الضوئية والقصيرة في الوحدة العروضية حسب نظام معين .. ولكن العروض العربي، لا يقوم على أساس مفهومي القوت والمنقطع (١٢١) .. بل على أساس التعاقب المركبة من الحروف المتحركة والسكونة (١٢٢) ..

وبهذا كانت اللغة العربية أعرق اللغات العالمية مبتداً، وأعزها جانباً، وأقواها جلالة، وأبلغها عبارة، وأغزرها مادة، وأدقها تصويراً لما يقع تحت الحس، وتعبيراً عما يحول في النفس، وذلك لمرونتها على الاشتقاق، وسعة صدر التعريب. نزل القرآن الكريم بلسانها فجعلها أكثر رسوخاً، وأشدّ بنياناً، وأقوى استقراً، وبفضل القرآن صارت أبعد اللغات مدى، وأوسعها أفقا، وأقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي نعشه الإنسانية.

واستطاعت اللغة العربية في ظل عافية الإسلام أن تتسع لتحيط بأبعد انطلاقات الفكر، وترتفع حتى تصعد أرق احتلاجات النفس. فليس هناك معنى من المعاني، ولا فكر من الأفكار، ولا عاصفة من العواصف، ولا نظرية من النظريات. تعجز اللغة العربية عن تصويره بالأحرف والكلمات تصوير صحيحاً، حي المقاطع، بارز القسَمات. هذه اللغة العريقة فتحت صدرها لثروات الإنسانية، ومعارف البشرية، كما تسعت مقومات الأمة الإسلامية التي شرفت بالحضارة وعمرت. برزت تتمتع بقوة لغة، دالة أشدها، فما عرف التاريخ لها صفوة، وما بدت الا تكون لسان الحضارة. فسرت من شبه خبرة العربية. تنتقل الى الأمصار القسية مفرداتها وميزاتها .. ووسعت مبادئ، ومثل لم تشكل عن احتلال أعيانها، بل في ظل ازدهار الحضارة الإسلامية مزنت، وانمست، وتفاعلت. ولتت نماها الطبيعي المتطور من داخلها، وهضمت حلالاتها القوية كما ما قدم من خارج محيطها حتى تعمقلت واتسعت آفاقها ..

## ولعل الدارس يلاحظ أن :

اللغة العربية المعاصرة تعاني أزمة... أزمة العزلة عن المعاصرة فلما كولات، واشترويات والملبوسات، وانفروشات، وأدوات الحركة، والسكون، والاستعمال، والطب، والدواء، وما يقع عليه بصر العربي، وما تلمسه يده. مستورد تلقظه الأجنبي. وبات كل ذلك جزء من الحياة. وتلك هي الخطورة الكامنة والتي أصبحت معدقة باللغة العربية..

ومجامع اللغة العربية بالقاهرة، ودمشق، وبغداد، وعمان، والمكتب الدائم للتعريب بالرياض، لم يتوفر لها من الامكانيات ما يواكب الحياة المعاصرة التي تفرز في كل يوم الجديد في كل شيء وربما كانت وظيفة الجامع قاصرة على التحقيق، وبات الأمر يتطلب جهودا تبذل في جدية وصدق، بين المستورد والمصدر، ليكون الصادر الى المجتمعات العربية، باسم عربي صوتا وحرفا ومعنى.. وقد أثبت التاريخ والتحرية أن اللغة العربية ترجمت اليها ثقافات الفرس والروم واليونان، فوسعتها جميعا، ولم تضق بها وجاءت بالألفاظ والكلمات التي تعبر عن المعنى المقصود في دقة وشمول، وبهذا كانت اللغة العربية هي النافذة التي يطل منها الناس على العالم كما كانت اللغة ذاتها هي المنظار الذي ترى الأمة بواسطته كافة حقائق العلوم، والوجود، وتفسر على ضوئه مجراها ومرسأها.

ان مصدر فاعلية اللغة العربية كان الأسس الفكري لأطار عملي تطبيقي يحدد لانسان اللغة العربية، المؤمن بها، ومؤمن على سيادة كلماتها، أسلوب التعامل مع الأغيار..

ان تحديد الموقف العملي الذي يتوجه لانسان اللغة العربية - في مختلف الأحوال والظروف - أن يلتزمه يقع في الصميم من مهمات الحياة. والموقف العملي لا يكون عمليا مالم يحكم بمحركة الانسان، وتواجده. والا فهو موقف نظري ليس مكانه ساحات التخصم والممارسة الحياتية.

## ● الهوامش ●

- (١) نظرا مقال الأستاذ محمد رباح كـ مجلة الفيصل العدد العاشر من ٣٩ قرأه.  
(٢) أرسيم (٣٨٤ - ٣٣٣ ق.م) - هينوف يوناني - عالم موضوع الفضل ليس له وجود. كذا ضبط

هو علم قوانين الفكر بحرف النظر عن موضوعات الفكر. وهي الموجودات. ويعلم الشق عند أرسطو مقدمة لتعليم الفلسفة وبهذا عا..

- (٣) الدكتور ابراهيم أنيس «من أسرار العربية» ص ٧٧ ط ٣ طبع الالغومصرية.
- (٤) أحمد عبد الرحيم السامح «العلاقة بين اللغة والشق عند الخازني». دراسة موضوعية بمجلة الباحث العدد الرابع ص ٧١ من السنة الثالثة ١٩٨٨م لأسست في باريس وتصدر من بيروت.
- (٥) مقالاً «العلاقة بين اللغة والشق» في المصدر السابق ص ٧٣.
- (٦) أبو حيان التوحيدى «الافتاح والنكاسة» ص ١٠٤ الى ص ١٤٣ الجزء الأول طبع طعة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.
- (٧) الدكتور ابراهيم أنيس «من أسرار اللغة العربية» ص ١٢٠ الطعة الثالثة نشر مكتبة الالغوم المصرية بالقاهرة.
- (٨) أحمد عبد الرحيم السامح «العلاقة بين اللغة والشق عند الخازني» ص ٧٤ مجلة الباحث. بيروت..
- (٩) ابن أبي الأصميصي (تحرير التحرير) ص ١٩٤ ع المجلس الأول للشق الاسلامى بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ.
- (١٠) سورة آل عمران. الآية رقم ٥٩..
- (١١) سورة ص. الآية رقم ٧١..
- (١٢) سورة ص. الآية رقم ٧٦..
- (١٣) ابن أبي الأصميصي (تحرير التحرير) ص ١٩٤ ع المجلس الأول للشق الاسلامى.
- (١٤) يعمر بن أبي سلمى «الديوان» ص ٧ ط دار الكتب المصرية. وينظر يحيى بن حمزة الجنى في كتاب الفراء ج ٣ ص ١٤٥ ط مصر ١٩١٤هـ. والأشقي: جمع أئمة. وهي ما توضع عليه القدر - والسفح: السود - والمرحلي: القدر يضح فيها - وأتو: الخجالة - حده الخوص: أصله - وينتلم: بالكسر..
- (١٥) ابن أبي الأصميصي (تحرير التحرير) ص ١٩٥..
- (١٦) سورة التحل. الآية رقم ٩٠..
- (١٧) الأوداد هو أن يريد التكلم معنى فلا يعمر عنه بلقطه الموضوع له، ويعمر عنه بلقط هو رده وتابعه أي قويت من لقط قرب من الوداد «قدامة بن جعفر في كتاب (نقد الشعر) ص ٥٧»..
- (١٨) سورة الطه. الآية رقم ٧٧٩.
- (١٩) سورة الاسراء. الآية رقم ٣٣.
- (٢٠) سورة الأعراف. الآية رقم ١٩٩.
- (٢١) سورة التحل. الآية رقم ٩٠.
- (٢٢) ينظر: الشريف المرتضى «أمناء المرتضى» ج ١ ص ٢٢٢ تحقيق أبو الفضل ابراهيم طبع سنة ١٩٥٥ مصر.

- (٢٣) سورة هود الآية ٦٣  
(٢٤) ابن أبي الأصبغ المصري (تحرير التحرير) ص ٢٠٠ ط مجلس الأهل للشعوب الإسلامية بالقاهرة.  
(٢٥) جورج بركات «الفلسفة العربية» ص ١١٠ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٣ القاهرة.  
(٢٦) الكعالي «فقه اللغة» ص ٥٥٣ ط المكتبة التحلية بالقاهرة.  
(٢٧) أحمد عبد الرحمن السامح «من حقائق لغة العربية» دراسة تحليلية «الأفلام» السنة السادسة سنة ١٣٨٩ هـ آخره الأول ص ٢١ الخرج.  
(٢٨) الكعالي «فقه اللغة» ص ٥٤٩ ط المكتبة التحلية بالقاهرة.  
(٢٩) النجدي «التحرير» ج ١ ص ١٢٢  
(٣٠) علي عبد الرزاق «الأدب» ص ٦٤ طبعة سنة ١٩٦٢ القاهرة.  
(٣١) عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز» ص ٥١ الطبعة الثانية القاهرة.  
(٣٢) ابن خلدون «المقدمة» ج ١ ص ٥ ط افلا ١٩٦٣ مصر.  
(٣٣) المنصور الساعاتي ج ١ ص ٢٢٣.  
(٣٤) السبكي «تأريخ» ط دار احياء الكتب العربية.  
(٣٥) الدكتور عثمان أمين «فلسفة اللغة العربية» ط المكتبة القدسية مصر.  
(٣٦) محمد الشاذلي «فقه اللغة» ص ٦١ طبعة سنة ١٩٦٠ دمشق.  
(٣٧) الدكتور عثمان أمين «فلسفة لغة عربية» ص ٤٨ ط المكتبة القدسية.  
(٣٨) الدكتور ابراهيم غيا «فقه اللغة العربية» ص ٧ طبعة السعادة بمصر.  
(٣٩) الأستاذ ابراهيم مصطفى «احياء النحو» ص ٥٥ الطبعة الأولى.  
(٤٠) اعطاطيوس «دراسات في تاريخ الأدب العربي» ص ٦ طع موسكو سنة ١٩٦٥.  
(٤١) وهما معهد باكو عبر معريون عبد العرب.  
(٤٢) اعطاطيوس «دراسات في تاريخ الأدب العربي» ص ٨.

أخي المواطن - ان اقتران الدارة باسم الملك عبد العزيز رحمه الله، انما هو وفاء بحقه على أمته، وتقدير منها لدوره البطولي في تأسيس مملكتنا الشاعنة، ورمز لاحياء ذرات العرب قديما بما كانت تضفيه على الوافدين اليها من كرم وسخاء. وهذه تقدم للباحثين واغني العلم والمعرفة ما يتغوبه من معنى العلم الذي لا ينضب

مع تحيات دولة الملك عبد العزيز